المسيح العراقيّ

حسن بلاسم: كاتب وشاعر وسينمائيّ عراقيّ مقيم في فنلندا. له مجموعة قصصيّة، **مجنون ساحة الحريّة** (مترجمة إلى الإنكليزيّة)، ولم تصدر المجموعة الثانية في العالم العربيّ «بسبب الرقابة.» القصة هنا هي من ضمن مجموعة تصدر بالإنكليزيّة عن كوما پريس في إنكلترا.

كنّا نعسكر في مدرسة بنات. قالوا إنهم ذاهبون للنوم في الملجأ. دانيال المسيحي أخذ بطانيّته وفرشها بعيدًا في ساحة المدرسة المكشوفة.

– المسيح أبو علج مسودن [مجنون]، علّق جنديٌّ بطول النخلة، والخبزُ اليابسُ يملأ فمهَ.

– لو يمكن ميريد ينام ويّة المسلمين، عقّب جنديٌّ آخر .

هؤلاء شبّانٌ قردة، لا يعرفون حقيقة دانيال. شغلُهم الشاغلُ ممارسةُ العادة السرّيّة فوق رحلات البنات. صاروخ واحد ويصيرون عيورة متفحّمة. في مثل هذه الحروب العبثيّة، موهبةُ دانيال هي طوقُ نجاة. كنّا معًا في حرب الكويت. لولا قدراته المدهشة لما نجونا. باستثناء كآبته، لا يمكن اعتبارُه من طينة البشر. إنه نسمةُ هواءٍ عذبة.

فرشتُ بطانيّتي قربه، واستلقيتُ على ظهري مثله، محدّقًا في السماء.

– نم يا صديقي علي. نم. ماكو أيّ علامة الليلة. نم.

ثم شخر في الحال.

دانيال كان يعلك طوال الوقت. عمّده الجنود بلقب «المسيح أبو علج» مرّات كثيرة. خيّل إليّ أنّ علكة دانيال كانت بمثابة بطاريّة لشحن شاشة دماغه. كان حلمُ حياته العملَ في وحدة الرادار. أنهى دراسته المتوسّطة وتقدّم بطلب للتطوّع في القوة الجويّة. طلبُه رُفض، ربما لأنّ والده كان قياديّاً شيوعيّاً في السبعينيّات. كان عشقه لجهاز الرادار يضاهي عشقَ الآخرين للنساء أو كرة القدم. جمع صورَ الرادارات، وكان يتكلّم عن الإشارات والذبذبات كما يتحادث عاشقان عاريان في مزرعة عنب. أذْكر قوله لي في الحرب الماضية: «الإنسان، يا علي، أقدرُ جهاز رادار مقارنةً بالحيوانات الأخرى. كلّ ما يحتاجه هو أن يتمرّن على إخراج الروح وإعادتها مثل الشهيق والزفير.» دانيال وشم أيضًا على ذراعه اليمنى معادلة رياضيّة تخصّ الرادار:

$$P_r = \frac{P_t G_t A_r \sigma F^4}{(4\pi)^2 R^4}$$

مد أن تبدّدتْ آمالُ المسيح في الانضمام إلى القوة الجويّة، تطوّع في صفوف الوحدات طبيّة العسكريّة. لكنّه لم يتخلّ عن عشقه للرادار. ومن عرفه لم يستغرب هذا العشق؛ المسيح أبو علج، هو نفسه، كان أغرب رادار في العالم. أتذكّر تلك الأيّام المرعبة أثناء حربنا في الكويت. كان الجنود، المذعورون مثل فراخ البط، يتبعونه أينما ذهب. كانت طائراتُ التحالف تقصف خنادقنا من دون أن نتمكّن من أن نطلق رصاصة واحدة، وكأننا كنا نحارب قوة سماوية عليا. كلّ ما كنّا نفعله هو حفرُ المزيد من الخنادق والتحرّك من مكانٍ إلى آخر مثل الجرذان. عسكرْنا أخيرًا قرب الصحراء، ولم يتبقّ لنا سوى الإيمان بالله وقدرات دانيال المسيحي.

في إحدى الليالي، كنّا نأكل في الخندق مع بقيّة الجنود، حين أخذ دانيال يتذمّر من ألم في معدته. توقّف الجنود عن الأكل، وحملوا أسلحتهم واستعدّوا للوقوف وهم ينظرون إلى فم دانيال:

– أريد أن أستريح في ظلّ خزّان الماء الكبير.

لحقه الجنود وهم يتدافعون ويحاولون أن يلتصقوا به كأنّه درعٌ ضدّ الصواريخ. جلسوا حوله في ظلّ الخزان. بعد ٣٥ دقيقة فقط سقطتْ ثلاثُ قذائف فوق الخندق.

ولم تكن تلك هي المرّة الوحيدة؛ فلقد أنقذتْ تكهّناتُ المسيح العديدَ من الجنود. ما كان يحدث في تلك الحرب برفقة دانيال كان يشبه حكايات الرسوم المتحركة. بلمح البصر يصبح الواقعُ مطّاطًا. ينتهي التماسك، ويبدأ الهذيان. كيف يمكن التفكيرُ مثلاً في تلك الحكّة المستمرّة في خصْيتي المسيح التي تكهّنتْ بسقوط المروحيّة الأمريكيّة فوق مقرّ الضبّاط؟

وهل يمكن تصديق أنّ ثلاث عطسات متتالية للمسيح كشفتْ عن هجوم جنونيّ بالصواريخ، كانوا قد أطلقوها فوقنا من جهة البحر؟ كنا جنودًا خرفين، نخوض حروبًا هزليّة.

سمعتُ شائعات كثيرة تقول إنّ تقارير عدّة رُفعتْ إلى القيادات العليا عن قصّة المسيح. لكنّ الفوضى في تلك الأيّام، وهزيمة جيشنا، وسحقَه مثل الذباب، حالت دون اهتمام السلطات. كثيرة هي الأقاويل عن شغف الرئيس بالمشعوذين والسحرة وأصحاب القدرات الحارقة. يزعمون أنّ تلك الكتب، وما أكثرها، التي تُرجمتْ في البلاد بشكل مفاجئ عن علم الپاراسايكولوجيا في الثمانينيّات كانت بإيعاز من الرئيس: فهو قد سمع أنّ الدول المتقدّمة كانت تطوّر قدرات التخاطر وتستغلّه في عمليّات التجسّس. وفي ظنّ الرئيس أنّ العلم والشعوذة هما شيء واحد وإن اختلفتْ طرقهما في فكّ الأسرار.

لم يكن المسيح مغترّاً بقدرته في التنبّؤ، ولا اعتبارها أمرًا غريبًا. كان يحدّثنا بقصص عن قدرات الإنسان على التنبّؤ عبر تأريخه. ما انتبهتُ إليه هو أنّ كآبة دانيال السوداء قضت على مسرّته من أن يمتلك مثل هذه الموهبة. بل إنّ شغفه في الرادار لم يجلب له المسرّة. كانت أفكاره عن السعادة غامضة. فهمت مه أنّ عتمة الذات كانت تخيفه. وقد ظنّ أنّ موهبته مجرد دليل آخر على مدى عجزنا وضآلتنا في هذا العالم الغامض. أخبرني انه قرأ في سنّ مبكّرة قصة لكاتب عراقيّ. كانت شخصيّة الكاتب ساخرة وخائفة في الوقت نفسه. البطل في القصة كان قد بلعه كوسج بعد معركة شرسة في نهر الزمن المتخيّل: يجلس البطل في العتمة أسيرًا هناك ويفكر وحيدًا : كيف بالإمكان التوفيق بين حياتي الخاصة وإدراكي لعالم ينهار أمامي؟*

سؤال أرهق حياتي. ظلّ يؤرّقني مثل جرح مفتوح – يقول المسيح.

حين استيقظنا في اليوم التالي كانت القوات الأمريكيّة على مشارف بغداد. وبعد ساعات أسقطوا تمثالَ الديكتاتور. كانت صدمة سورياليّة. ارتدينا ملابسنا المدنيّة وعدنا إلى أهلنا. كانت مجرّد حرب عميان أخرى. لا أحد من كتيبتنا أطلق رصاصة واحدة.

❖ ❖ ❖

التقيتُ دانيال بعد الحرب مراتٍ عدة. عاد إلى العيش مع أمه العجوز. وبعد أن حلّت الفوضى في البلاد، زرتُه في بيتهم في بغداد. كنت أريد الكلام معه عن عودتنا إلى الجيش. قال إنه كره الديكتاتور، لكنه لن يساهم في جيشٍ تحت وصاية المحتلّ. بعدها لم ألتق به.

عدتُ إلى الجيش، وعاد دانيال إلى العناية بأمه. كانت أختاه قد هاجرتا إلى كندا منذ زمن طويل، وتسرّب بقيّة الأقارب من البلد تباعًا؛ طفّشتهم الحروبُ وجنونُ التعصب الدينيّ. من عائلته الكبيرة بقيت الأم فقط. عرفتُ أنّ دانيال كان يقضي في البيت جلّ وقته في قراءة الروايات والموسوعات العلميّة، ويتابع الأخبار، ويرعى أمه التي فقدت السمعَ والبصرَ والذاكرة. الشيخوخة فصلتْها عن العالم. العجوز لم تسيطر على فضلاتها. كان المسيح يغيّر حفاظاتها وأكياسَ البول كلّ بضع ساعات. موت أمه كان يعني انقطاعَ الخيط الذي يشدّه بالمكان. لم يكن ينوي أن يهاجر. توسّلتْ إليه أخته الكبيرة في رسالة مطوّلة أن يهرب من البلد، لكنّ المسيح يشبه أمه في عنادها. كلاهما رفض غواية الشيطان ـ الانفصال عن فردوسها الضائع.

بعد قدّاس يوم أحد اصطحب المسيحُ أمّه إلى مطعم شعبيّ مشهور بكبابه. أعجبته نظافةُ المطعم وتخصيصُهم مقاعدَ للأطفال. لقد تغيّر المكان كثيرًا. لم يتذكّر آخر مرّة كان فيها هنا. اختار طاولة فارغة في الزاوية وأعان أمه على الجلوس. أثاره مرحُ النادل. كان يمزج أسماءَ الأكلات الشعبيّة بأدوات الموت اليوميّة، وكان الزبائن يضحكون ويحبّونه. يصيح مناديًا على طلب: «نفر كباب مفخّخة يضوي الدماغ والبطن... واحد تشريب انشطاري... تمن ويابسة صاروخية...»

طلب المسيح نفر ونصّ كباب، وأوصى على الفلفل الحارّ وقدح لبن وزجاجة عصير باردة. عاد النادل بالطلبات وألقى على مسامع المسيح نكتة شعبيّة عن الفضول. ابتسم المسيح للمجاملة. حمل أصابعَ أمه برفق وتركها تتلمّس الكباب الحارّ والطماطم المشويّة. أعادها إلى مكانها على طرف الطاولة. جهّز لها لقمة لذيذة، ودسّها في فمها وهو يبتسم لها بمحبّة إلهيّة كبيرة.

استأذن شابٌّ في الجلوس إلى طاولة المسيح. ضخامة جسده وقسوة ملامحه لم تَحُولا دون تخمين عمره: إنه مقبلٌ على العشرين. طلب نفر كباب وأوصى على المزيد من البصل. كانت وسامته لافتة للنظر. وكان يحكّ رقبته مثل من فيه جرب، وعيناه لا تستقرّان على مكان.

* هكذا قال إنعمار برغمان في أحد الحوارات معه.

قرّب دانيال صحن السلطة إلى أصابع العجوز وتركها تمسّ الخضرة في الصحن. جهّز لها لقمة أخرى. راقبهما الشابُّ خلسةً. بدا غريبَ الأطوار. ظلّ يلوك لقمته ببطء، وجاهد في بلعها والدموعُ تنبثق من عينيه الجميلتين. انتبه دانيال إليه. أمال رأسَه إلى الأمام، وسأل إنْ كان بإمكانه المساعدة. كرّر سؤاله. لكنّ الشاب لم يرفعْ عينيه عن الطبق، وبدا كأنّه لم يسمع دانيال. واصل المضغَ ودموعُه تهطل. استلّ منديلاً ومسح دموعَه ونظّف أنفه. جال ببصره في أرجاء المطعم، ثم حدّق في عيني المسيح. تبدّلتْ ملامحُه الباكية متكشّفةً عن وجه آخر. بدا وكأنه نزع قناعًا عن وجهه. أمسك بطرف سترته وأزاحها قليلاً كمن يعرض صدره:

ـ إنه حزامٌ ناسف. كلمة واحدة منك وأفجّر نفسي.

قالها الشابُّ وألقى نظرةً مهدِّدةً صوب العجوز.

❖❖❖

قُتلتُ أنا بنيرانٍ صديقة. كنّا في دوريّة مشتركة مع القوات الأمريكيّة. فُتحتْ علينا النارُ ليلاً من بيت في تلك القرية. ردّ الأمريكان بهستيريا، وظنّوا أننا نطلق النار صوبهم. تلقّيتُ ثلاث رصاصات في الرأس. التقيتُ المسيح في عالمنا الجديد. وكنتُ غايةً في السعادة. روى لي كيف أنه كان منقادًا إلى ذلك الشابّ في مطعم الكباب، بطريقةٍ لا يمكن تفسيرُها. لم يكن الرعبُ وحده ما شلّه بل الرغبة الغامضة التي انتابته حينها في الخلاص. استمرّ للحظاتٍ يحدّق في وجه الشابّ. عندها أمال الأخير رأسه وطلب إلى المسيح النهوض معه إلى تواليت المطعم. لم يتزحزح أولَ الأمر من مكانه وكأنه تحجّر، ثم قبّل رأسَ أمه ونهض.

اقتاده الشابُّ إلى المرحاض. وارى الباب واحتفظ بطرف أصبعه فوق زرّ الحزام الناسف، وبيده الأخرى استلّ مسدّسًا من حزامه. صوّبه إلى رأس دانيال. كان الشابّ يعانق المسيح ويلفّ ذراعيه حوله بسبب ضيق المكان، وقد لخّص ما يريده: أن يتبادلا الحزامَ مقابل حياة العجوز.

كان الشابّ في حالة هيستيريّة. قال إنّ هناك من سيصوّر الانفجار خارج المطعم، وإنْ لم ينسفْ نفسه فإنهم سيقتلونه. لم يردّ دانيال عليه بكلمة. راحا يتصبّبان عرقًا. حاول زبونٌ دفعَ باب المرحاض. تنحنح الشابّ، ثم كرّر وعدَه للمسيح بإخراج العجوز من المطعم بأمان، وإذا لم ينسف المسيحُ نفسه فإنه سيقتل العجوز. مرّت نصف دقيقة من الصمت، ثم وافق بايماءةٍ من رأسه وهو يحدّق ذاهلاً في عيني الشابّ. طلب الشابّ إليه أن يفكّ الحزام ويلفّه حول نفسه. كان الأمر صعبًا لضيق المكان. انسحب الشابّ بحذر، تاركًا المسيحَ في المرحاض وحوله الحزامُ الناسف. اتّجه مسرعًا صوب العجوز في زاوية الصالة. ربّت على كتفها بلطف وأمسك يدَها. قامت معه مثل الطفل. كان الزحام قد أخذ يشتدّ في المطعم، ويتعالى الضجيج. الأفواه تضحك، وأصواتُ الملاعق تنطلق وكأنها حربٌ بالسيوف.

خرّ المسيح منهارًا على ركبتيه. راح يتنفّس بصعوبة، ثم تدفّق البول في بنطاله. فتح بابَ المرحاض وزحف نحو الصالة. التقاه شخصٌ عند باب التواليت، فولّى هاربًا وهو يصرخ: «انتحاري ... انتحاري...»

وسط هلع الناس والأطفال وهم يدوسون بعضهم فوق بعض، لمح المسيحُ كرسيّ أمّه فارغًا، فضغط على الزرّ...